المرأة وقانون الصمت

قطع الرجل لسانها وأصبح هو وحده صاحب الكلمة

بريشة : ممدوح أنور

ليليان

فى يوم من الأيام وفى ليل الزمان ، سأل فيلسوف حية ، « هل كان يسرك لو خلقت امرأة ؟ فقالت : أنا امرأة غير أن سمى فى الناب وسمها فى لسانها !» . فكلام المرأة سم وحديثها سم ولسانها سم والرجل لا يريد أن يموت مسموما .. الرجل يريد أن يعيش ! .. والحل ؟ أن يقطع لسان المرأة ويخرسها .. وهذا هو ما فعله ! ! .

● ولكن هل فعلا لسان المرأة سم فى سم ؟ أبدا والله ! .. فكلام المرأة حلو وحديثها عذب ولسانها عسل .. بل إن لسان المرأة « صرخدى العسل » أى فى منتهى العسل . وكلامها من « العسل السعابيب » أى فى طعم الشهد والرحيق . وحديثها فيه « الثنا والعنفوان » ! . ولولا كل هذه الصفات العسلية التى يتحلى بها اللسان الأنثوى ، لما وهب شهريار راضيا أذنه لشهر زاد ألف ليلة وليلة ، وراح يسهر مع حواديتها ألف ليلة وليلة ، ولا ينام ألف ليلة وليلة من شدة سحر كلامها المعسول ! .

فالحكاية فى منتهى البساطة والوضوح . أن شهريار عندما ترك شهر زاد تتكلم كانت النتيجة قصة « ألف ليلة وليلة » . هذه التحفة الأدبية العالمية الوحيدة الشوبة إلى امرأة ! ..

● وهذا شىء يغيظ .. يغيظ الرجل بالطبع ! .

الرجل يفضلها خرساء !

وكل الرجال ليسوا شهريار ! فالرجل يريد أن يكون وحده الكلمة وصاحب الكلمة . والرجل فى منتهى الذكاء والعبقرية . فهو يعرف أن الكلمة أداة للسيطرة . وأن من يملك الكلمة هو صاحب السلطة . فالكلمة هى السلاح « الطبيعى » للجنس البشرى الذى لا يملك مخلبا ولا منقارا . فلو استولى الرجل وحده على الكلمة ، وحرم المرأة منها .. فسوف يحافظ على سيادته عليها ، وسوف يقمعها ، وسوف يقنعها بأنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة ... ولا يمكنها ان تظل حية ترزق إلا بخضوعها له . وهذا ما فعله الرجل .. فقد أخرس المرأة وقطع لسانها المعسول حتى لا تنطق كلمة ! وأصبح هو الكلمة والكلام ، والمرأة هى الصمت والسكوت ، هو الكل فى الكل وهى لا شىء .

ومنذ فجر التاريخ والسلطة فى يد الرجل ، والقوانين تحت يده والمرأة تحت أقدامه . إذن لا توجد مشكلة . لما أسهل عليه أن يشل لسان المرأة بتشريعاته ويحكم عليها بالصمت نظريا وعمليا ، ويحكم على عقلها بالظلام والجهل .

والتاريخ أكبر شاهد على هذه الحقيقة الخرساء الفصيحة ! .. ففيما عدا بعض الفلتات أى النساء الفصيحات البليغات ، فقد ظلت المرأة خرساء وجاهلة على مر الأجيال والقرون ، وحتى وقت قريب جدا فى أوائل القرن العشرين . والأدلة والبراهين كثيرة . ولسردها لا بد من مجلدات بمقدار سنوات عمر الرجل على الأرض ! ! .. فاستبداد الرجل لا أول له ولا آخر . ويكفى أن أذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض ألوان المرأة المقهورة حتى فى لسانها .. وكيف فرض الرجل وبتعسف على المرأة « قانون الصمت » .

هو السماء .. وهى « مكنسة » !

فى الصين وحسب مبادىء كنفوشيوس واتباع كنفوشيوس .. كانت تعتبر المرأة « أكثر ما فى العالم نفاذا وإفسادا » .. إنها مجرد حيوان لإمتاع الأطفال . فهى تعيش إلى جوار زوجها تحت نفس السقف ، ولكن بعيدا عنه . فممنوع عليها أن تأكل من نفس الطبق الذى يأكل منه ، ولا أن تشرب من نفس الكوب التى يشرب منها . فالمرأة مكروب ولا ينبغى أن تلوث الرجل ! فمهمتها على الأرض هى أن تخدم زوجها وتطيعه طاعة عمياء ، وتتحمل غضبه عليها ، وتصبر عليه مهما فعل .. « فالزوج هو السماء ولا يمكن المفروض من السماء » .. أى أن المرأة لا يمكن أن تهرب من زوجها حتى الموت ، فالطلاق لا وجود له . ولكن عليها « أن تهرب من الضحك ومن الكلام » .. فعلى المرأة صمت الثغر واللسان ! .. أما لو تكلمت « فعلى الرجل أن يبتسم لها ولا يستمع إليها » .. كما جاء فى كتاب « لى-كى » وهو أحد الكتب المقدسة عند أهل الصين .

● فالمرأة الصينية كانت مجرد قطعة أثاث فى بيت زوجها ، بل هى قطعة أثاث حقيرة . فهى « مكنسة » .. وأنا لا أبالغ فكلمة « زوجة » بالصينية مكونة من حرفين معناها « مكنسة » !

المرأة حذاء الرجل !

أما المرأة الكلدانية فى بابل ، فلم تكن مكنسة فحسب ، وإنما أيضا حذاء فى قدم زوجها يخلعه متى يشاء . ففى شريعة حمورابى كان من حق الزوج أن يطلق زوجته متى يشاء ، يكفى أن يقول لها : « أنت لست أمرأة لى » . أما لو تجرأت المرأة وقذفت زوجها بنفس هذه العبارة ، وقالت له فى لحظة غضب وسخط : « أنت لست لى زوجا » .. فالويل لها . فعقابها الموت بالغرق والهلاك فى النهر . فالمرأة مهما أساء زوجها معاملتها ومهما أذلها وأهانها عليها بالصمت والصمت وأيضا الصمت وإلا ... !

وهل وضع المرأة المصرية اليوم يختلف عن وضع المرأة الكلدانية منذ أربعين قرنا ؟ فلو طلقها الزوج أو من شدة عذابها تمنت الطلاق أفليس مصيرها هو الغرق فى نهر قوانين الأحوال الشخصية ؟ !

بينما نجد أن المرأة الفرعونية فى القانون

المصرى القديم المعاصر للقانون حمورابى كانت تتمتع بكافة الحقوق والواجبات. كما أن المرأة الفقيهة كانت تلعب دورا هاما فى الدين والسياسة والحكم وتتولى العرش. لأنها كانت تتكلم وكان لها لسان! فما أكرم الرجل المصرى القديم!.

اسمها الشر والذل!.

أما المرأة فى اليونان، فكانت لا تقل تعاسة وشقاء عن المرأة فى بابل. وكانوا يسمونها الشر. فهى الشر والشر بعينه. ففى يوم رأى الفيلسوف الإغريقى ديوجنيس امرأة تغترف أمامه ويحملها السيل، فقال: «شر أخذ شرا»!. وفى يوم رأى سقراط امرأة تحمل نارا، فقال: «نار تحمل نارا» والحامل شر من المحمول! وفى يوم رأى الفيلسوف أبيقور امرأة فقدت عينها، فقال «ذهب نصف الشر»!.

وكانوا أيضا يسمونها الذل ويذيقونها الذل والمر. وكل هذا والمرأة خرساء تتحمل ذلها بصمت. «فصمت المرأة هو مجدها» كما قال أرسطو.

كمامة لفمها ولجام للسانها!!

أما المرأة عند الرومان.. فكانت مجرد «عجلة» يبيعها الأب للزوج، وبنفس الثمن الذى تباع به العجلة فى أسواق روما. وما دامت «المرأة العجلة» مثل أية بهيمة أخرى فى قطيع الماشية الذى يملكه الزوج، فله حق أن يفعل فيها ما يشاء. وليس من عليها وكأنه بقرة أو جاموسة أن تتبرم أو تتذمر من وضعها!.

وبلغ استبداد الرجل الرومانى واضطهاده للمرأة الى الحد الذى حرمها فيه عمليا لا نظريا من الضحك ومن الكلام.. فالمرأة فان اللسان النفاخ، والتى لا يكف فمها عن الضجيج والصراخ، والتى تقذف الرجل بوابل من قارص الكلام.. اخترع لها الرومان لإرغامها على الصمت الأبدى، كمامة لفمها وشكيمة للسانها!. فبالكمامة يحرس لسانها النفاط، وينقطع تيار كلامها، ويتوقف معين كلماتها.. فلا تنطق كلمة، وتخرس بالفعل وبالفعل!.

أما الزوجة المثالية فى نظرهم، أى تلك التى تنجح فى كبت الكلام فى حلقها، وخنقه فى حنجرتها طوال حياتها الأرضية، فإن زوجها بعد انتقالها إلى السماء كان ينقش فوق قبرها كمامة ولجاما تحية وتقريظا لصمتها!.

● والذى لا يصدقنى، أو لا يقوى عقله على تصديق هذه الوقائع والحقائق، عليه أن يقرأ مؤلفات ليقوس المؤرخ الرومانى العتيق الذى قضى ٤٠ عاما يسجل فيها تاريخ روما!.

٩٩ زوجة لكم أنفاسها!

● وقبل ظهور الإسلام كانت حالة المرأة فى البلاد العربية، والبلاد المتاخمة لها، لا تختلف كثيرا عن حالة المرأة الرومانية.

ففى بلاد فارس كانت المرأة مجرد أمة أو عبدة رقيقة تقضى جميع أيام حياتها مسجونة بين جدران بيتها الصماء.. فليس من حقها أن تخرج عنها مطلقا، وليس من حق عينيها أن ترى نور الدنيا الواسعة، وليس من حق أنفها أن يتنفس الهواء الطلق. وكان من حق الرجل أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة حسب مزاجه. فهى مجرد سلعة تباع وتشترى وتقتل!.

● أما المرأة عند العرب.. فقد كان لها شأن عظيم وتأثير كبير. ويكفى أن أذكر «الزباء» ملكة تدمر، و«بلقيس» ملكة سبأ، و«ماء السماء بنت عوف» التى تولت الحكم ومن نسلها ملوك الحيرة.

فبصفة عامة كانت المرأة العربية معززة مكرمة بين قومها.. بل كانت «سيدة» بمعنى الكلمة، إذا قالت كلمة انصاع لها الرجال.. لأنها وبنتهى البساطة كانت تملك لها «يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يبين به عقل وافر، وجواب حاضر» على حد قول عمرو بن حجر ملك كندة وجد امرىء القيس.

ومع هذا فإن وضع المرأة فى الجاهلية الأولى، وعند بعض القبائل العربية، كان لا يسر له القلب ولا يرتاح له الفؤاد من شدة انحطاطه وامتهانه. فالأب كان يئد ابنته ويدفنها حية فى الرمال، أو يبيعها بيع الرقيق، أو يستبدل بها بعض رءوس الحيوانات. فهى مجرد رأس لا فرق بينها وبين رأس أية بهيمة فى قطيع الماشية. ولذلك كان الرجل يتزوج بأى عدد يشاء من النساء.. «بل لم يكن عربى ميسور إلا تراه متزوجا ١٥ أو ٢٠ أو أحيانا ١٠٠ زوجة» كما جاء فى كتاب منحه الصادقين للملا نتح الله.

فالبنت بمجرد أن تطلق صرخة الحياة يكتم نفسها إلى الأبد.. والزوجة بمجرد أن تنتقل إلى بيت الزوجية تكتم أنفاسها وتخرس ٩٩ زوجة أخرى!.

وبمجرد ظهور الإسلام أزيلت تلك العادات الهمجية البربرية. ومنح الإسلام المرأة كل الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية إلا فى القرن الأخير فسبق بذلك الشرع الإسلامى كل شريعة سواء فى تقرير مساواة المرأة بالرجل واعلان حريتها..

● وكان صدر الإسلام هو بحق العصر الذهبى للمرأة العربية. فقد كان لسانها فصيحا وعقلها حكيما وفمها مستنيرا

ولكن ما كادت المرأة العربية تتكلم وبلاغة حتى أخرسها الرجل شبا نشبا.. بسنده فى أول الأمر فى عهد الأمويين والعباسيين. وبعنف فى آخر الأمر فى عهد الفاطميين.

سنة سوداء للمصرية!

● وأقسى ألوان الصمت والعذاب كان من نصيب المرأة المصرية وعلى يد الحاكم بأمر الله.. وكان الرجل مجنونا بمعنى الكلمة.

وكانت سنة ٤٠٥ هجرية أى ١٠١٤ ميلادية، هى أسود سنة فى كل تاريخ المرأة المصرية. ففى هذه السنة أصدر الحاكم بأمر الله فرمانه العجيب بمنع النساء منعا باتا من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا، حتى الذهاب إلى الجامعات ممنوع، وكأن الظلمة ليست من الإيمان! ومنعهن أيضا من أن يطللن على أسطح المنازل أو ينظرن من النوافذ! كما منع صانعى الأحذية من صنع الأحذية لهن، ولما غضب التجار أمر بإغلاق حوانيتهم. وبلغ الطغيان إلى حد أنه نكل بعض النساء لمخالفتهن هذه الأوامر، كما هدم بعض الحمامات على من فيها من النساء. فالمرأة يجب أن تكون بلا رجه وبلا جد وبلا عينين وبلا قدمين!.

وراح يزيد الطين بلة والطنبور نغمة بأن حرم الحب على المرأة. الحب ممنوع؟! نعم ممنوع! فبعد أن كتم أنفاسها فى البيت راح يكتم أنفاس قلبها.. أى حكم عليها بالموت مرتين.. ولكن القلوب أسرار وأبار.. فماذا يفعل المجنون لكى يتأكد من أن المرأة التى تحت حكمه لا تحب؟..

راح ينشىء أول جهاز مخابرات فى العالم الإسلامى.. فأعد حشدا من النساء العجائز أى من الجاسوسات الشمط الحاقدات على الشباب وعلى نضارة قلب الشباب. وكلفهن بالاستعلام عن أخبار وأحوال قلوب النساء.. من منهن تحب ومن هو حبيبها.. وكانت التقارير والكشوف بأسماء المحبين والمحبات تتكدس كل يوم فوق مكتبه من العجائز الشمط. أما مصير كل من يتكلم قلبها وتحب، ومصير حبيبها أيضا فهو: الموت بالغرق فى النيل.

● هكذا فوق المجنون على الأرض وفى الحياة بين كل اثنين فى حالة حب، ولكنه جمع شملهما فى الموت!.

وكان من الطبيعى أن تكره النساء.. وأن يكره الرجال.. وعبر الشعب المصرى عن كراهيته بأسلوبه التقليدى: السخرية. فصنعوا امرأة من الورق وألبسوها ملاءة وحذاء، ووضعوا بيدها المدودة رقعة ورق على أنها تظلم ترفعه إلى الحاكم. والورقة فيها سبه وسب أسلافه، والدعاء عليه واللعنة له، وكل شتيمة قد تخطر على بالك. وتم نصب تمثال «المرأة الورق» فى أحد الطرق التى اعتاد الحاكم أن يمر منها، ولما رآها ظن أنها امرأة حقيقية فأمر بقتلها.. ولما تبين الحقيقة جن جنونه وأمر بقتل الكثير من النساء وإحراق بيوتهن. ودارت معركة بين الشعب وجنود الحاكم استمرت ثلاثة أيام دمر فيها عن طريق الحريق ما يقرب من ثلثى القاهرة.

والحمد لله جاءت نهايته على يد امرأة.. ومن؟ أخته ست الملك «أعقل النساء وأشدهن حزما وأنبههن جنانا» كما يصفها ابن الصابى. فبإيعاز منها تم قتله فى عام ٤١١ هجرية أى ١٠٢٠ ميلادية.

كفن وبرقع للكلام!

● ولكن هل بموت المجنون انتهى عذاب المرأة المصرية وصمتها الأخرس؟..

أبدا! ففى عهد المماليك والسلطنة التركية تحول كل رجل إلى الحاكم بأمر الله على «العبدة» بأمر الحاكم! وظلت المرأة مظلومة وجاطة وصامتة. الأب يسوقها كالبهيمة إلى زوج.. والزوج يسجنها سجنا مؤبدا فى بيته.. ويحكم إقفال الأبواب عليها، وإسدال الأستار على نوافذها والحجاب على منافذ وجهها!.. فالزوجة التى يفخر بها الرجل هى «المرأة التى لا تخرج من خدرها إلا محمولة الى قبرها!» وإذا خرجت لا تخرج إلا مخفورة أو منقولة فى المحفات منحجبة متبرقعة ملتفة بالأكفان كما جاء وصفها على لسان كتاب هذه العصور المظلمة.

● ولم يكن حال المرأة فى الغرب يختلف بكثير عن حال المرأة فى الشرق.

فكم تعذبت المرأة من الصمت وبصمت فى كل زمان ومكان، وعلى مر العصور والأجيال وحتى وقت قريب جدا.

فالرجل الذى ظل دائما ومنذ أول الزمان هو الكلمة وهو صاحب الكلمة.. سجن لسان المرأة داخل فمها ووضع فوقه برقع الصمت، وسجن عقلها فى جمجمة رأسها وغطاء بكفن الجهل.. وسجنها هى فى البيت وحجبها وبرقعها ولجمها!.. ولكن كل سجينة مظلومة تثور على طريقتها.. وتتكلم بأسلوبها.. ولغة المظلومات الصامتات الخرس، لغة أنثوية مائة فى المائة.

فكيف تكلمت المرأة؟ وبأية لغة؟ وبأية لهجة؟.. هذه حكاية أخرى وموضوع آخر.

●